﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ٢٦﴾ [مريم: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لما قَبْلَها:

معيّة الله للصّالحين لا تنقطع

الآية موصولة مع ما قَبْلها؛ لأنَّها جزءٌ من تلقين السَّيّدة مريمَ حُجَّتَها، ولأنّ الأكل والشّرب مُسبَّبٌ على نتيجةِ هَزِّ جذع النّخلة؛ من قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25]، فبينهما تواصلٌ عامٌّ، وآخرُ خاصٌّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَقَرِّي﴾: أصلُ القَرِّ: يدلُّ على الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قَرَّ الشَّيْءُ يَقِرُّ قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه ولم يَتَحَوَّلْ[1]، وقيل: أصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البَرد، وهو يقتضي السُّكونَ، والحَرُّ يقتضي الحركةَ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أيْ: بَرَدَتْ فصَحَّت، وقيل: بل لأنَّ للسُّرور دَمعَةً باردة قارَّةً، وللحُزْنِ دَمعَةً حارَّةً؛ ولذلك يُقالُ فيمن يُدْعى عليه: أسخَنَ اللّه عينَه[2]، وضَعَّفَ ناسٌ هذا، وقالوا: الدَّمع كلُّه حارٌّ، فمعنى (أقَرَّ اللّه عينَه) أي: سكَّن اللّهُ عينَه بالنَّظر إلى من يُحبّه حتَّى تقرَّ وتسكُن[3]، ومنه: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّت، وقيل لمن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عين، قال تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ﴾ [القصص: 9]، وعليه: فالمُرادُ بـ ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ في الآيةِ: كِنايَةٌ عَنِ السُّرورِ، وتَشْمَلُ هَناءَ العَيْشِ، والأُنْسَ بالطِّفْلِ المَوْلودِ، وكذلك كِنايَةٌ عَنْ ضَمانِ سَلامَتِه ونَباهَةِ شَأْنِه[4].

2) ﴿نَذَرۡتُ﴾: أَصْلُ (نذر) يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرّ).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قرّ).
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 21.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 89.

الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ، ومنه النَّذْرُ: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ: أوجِبُ[1]، والنَّذْرُ أيضًا: ما يَنذُر الإنسانُ فيجعلُه على نفسه نَحْبًا واجبًا[2]، أي: أن توجبَ على نفسك ما ليس بواجب لحدوثِ أمر، يُقالُ: نَذَرْتُ للّه أمرًا[3]، والنَّذيرَةُ: اسْمُ الشَّيْءِ الَّذي تُعْطي، والجَميعُ النَّذائِرُ[4]، والمفاد بالنَّذْرِ في الآية: ما يوجبُه المَرْءُ على نفسه ويَعْقِدُ نيَّتَه عليه.

3) ﴿صَوْمًا﴾: أصل الكلمةِ (صوم) يَدُلُّ على إمساكٍ ورُكودٍ في مَكانٍ، يُقالُ: صامَت الرّيحُ: إذا رَكَدَتْ، والصَّوْمُ: مَصْدَرُ صامَ، ومَعناهُ: الإمساكُ والتَّرْكُ مُطْلَقًا، ومِنهُ الإمساكُ عن الطَّعامِ والشَّرابِ والكلامِ وغيرِ ذلك، يُقال: صامَتِ الخَيْلُ: إذا أَمسَكَتْ عَنِ السَّيْرِ[5]، والمقصود به في الآية: الالتزام بالصَّمت والانقطاع عنِ الكلام.

4) ﴿إِنسِيًّا﴾: (أنس) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو ظُهورُ الشَّيءِ، وكُلُّ شَيْءٍ خالَفَ طَريقَةَ التَّوَحُّشِ، قالوا: الإِنْسُ خِلافُ الجِنِّ، وسُمّوا لظُهورِهِم، يُقالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إذا رَأَيْتَهُ، والأَنْسُ: أَنْسُ الإِنْسانِ بالشَّيْءِ إذا لَم يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ[6]، والأَنَسُ: جَماعَةُ النّاسِ، وهُمُ الإِنسُ[7]، والإِنْسِيُّ: الإِنْسانُ، والياءُ فيه للنَّسَبِ إلى الإِنْسِ، وهو اسْمُ جَمعِ إِنْسانٍ، فياءُ النَّسَبِ لإفادَةِ فَرْدٍ مِنَ الجِنْسِ، مِثْلَ: ياءُ حَرَسِيٍّ لواحِدٍ مِنَ الحَرَسِ، وهذا نَكِرَةٌ في سياقِ النَّفْيِ يُفيدُ العُمومَ، أَي: لَنْ أُكَلِّمَ أَحَدًا[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّهُ تعالى لمريمَ عليها السلام: فكُلي مِنَ الرُّطَبِ الجَنيِّ، واشربي مِنَ الجَدْوَلِ السَّريِّ، وقَرّي عينًا برؤيةِ الولدِ النَّبيّ، فإنّ اللّه قدير على صون سمعتِك، والإرشادِ إلى حقيقة أمركِ، وافرَحي ولا تحزَني، فإنْ رأيتِ أحدًا مِنَ النّاسِ يُريدُ أن يُكلِّمَكِ فقولي: إنّي أَوجبتُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).
(2) الخليل، العين: (نذر).
(3) الرّاغب، المفردات: (نذر).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صوم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أنس).
(7) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (أنس).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 94.

على نفسي لله صمتًا ألّا أُكلِّم اليوم أحدًا، فإنّ كلامي يَقبَلُ الرَّدَّ والجَدَل، ولكن يتكلَّم عنّي ذلك المولودُ الَّذي لا يقبَل كلامُه الدَّفعَ والرَّدّ، وإنّي أُنَزِّه نفسي عن مجادلة السُّفهاء، ولا أُكلِّمُ إلّا الملائكة، أو أُناجي الخالِق[1].

أُمِرتْ مريمُ عليها السلام بالسُّكوت ليكفيَها عيسى الاحتجاجَ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها في قوله: ﴿فَكُلِي﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَكُلِي﴾ للسَّببيَّة؛ لأنَّ مريمَ لَمّا هَزَّتْ جِذْعَ النَّخلةِ فتَساقَطَ الرُّطَبُ، سَبَّبَ عَنْه أمرَها بالأكل، أيْ: فتَسَبَّبَ عَنِ الإنْعامِ عليْها بالماء والرُّطَب أنْ يُقالَ لَها تَمكينًا مِن كُلٍّ مِنهُما: كُلي مِنَ الرُّطَبِ[2]، ومجموعُ الأوامرِ الثّلاثةِ بعد الفاء مُسبَّبةٌ على مجموع الآية قبلَها: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: 25] الآية، ولو قيل: إنّها مُسبّبة على قوله: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم: 25] لكانت مُسبَّبةً في المعنى على قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: 25] أيضًا، ويُمكن أن يُقالَ: إنَّها الفاء الفصيحةُ؛ لأنَّها أنبأت عن شرط محذوف، تقديره: إذا تَمَّ لكِ هذا كُلّه فكُلي.

الفاء بينَ السَّببيَّة والفصيحة

معنى الأمرِ ودلالتُه:

الأوامر الثلاثة في قوله: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّيۖ﴾؛ لتوجيه مريم وإرشادِها إلى ما يُقَوّي جسدَها، ويُطَمئن قلبَها؛ حيثُ أمرَها اللّهُ تعالى أن تأكل بَعْد مخاضِها تَمرًا غَضًّا طَريًّا أَثْمر لتَوِّه، وأن تشرب مِنَ السَّريِّ، ولِتَقرَّ عينُها بتأييد الله لها[3]، والأمرُ قيلَ: يَحْتَمِلُ الوُجوبَ والنَّدْبَ، وذَلِكَ باعْتِبارِ حالِها، وقيلَ هو للإباحَةِ.

إرشادُ مريمَ، وتبشيرُها

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/ 516، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 225.
(2) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرَر: 12/ 190.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 579.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي﴾:

مِـنَ الإحـسـانِ شمولُ العطاءِ

الواو حَرْف عَطْف يُفيد المشاركةَ بينَ المعطوف والمعطوف عليه في الحُكْم والإعراب، ودلَّ العطف بالواو في ﴿وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي﴾ على الجَمع بينَ ما يُقَوّي مريمَ بَدَنًا وروحًا، وظاهرًا وباطِنًا، والمعنى: جَمَعنا لكِ بينَ الأكل، والشُّرْب، وقَرارة العين.

نُكْتَةُ تسليةِ مريمَ بالطّعام والشّراب:

قد يكون الشَّيءُ مألوفًا ومُعجِزًا

وإنْ قيل: ما كان حزنُها لفقْدِ الطَّعامِ والشَّرابِ حتَّى تُسلَّى بالسَّريِّ والرُّطبِ؟

فالجوابُ: لم تقَعِ التَّسليةُ بهما مِن حيثُ إنَّهما طعامٌ وشرابٌ، ولكنْ مِن حيثُ إنَّهما مُعجزتانِ تُريانِ النّاسَ أنَّها مِن أهلِ العِصْمةِ، والبُعدِ مِنَ الرّيبةِ، وأنَّ مِثْلَها ممّا قَرَفوها به بمَعْزِلٍ، وأنَّ لها أُمورًا إلَهيَّةً خارجةً عنِ العاداتِ، خارقةً لما أَلِفوا واعتادوا، حتَّى يتبيَّنَ لهم أنَّ وِلادَها مِن غيرِ فحْلٍ ليس ببِدْعٍ مِن شأنِها[1].

سِرُّ تقديمِ دَفْعِ ضَرر الجوع والعطش على دفع ضَررِ الخوف:

تَـدَرُّجٌ في تسليَة مريمَ وارتقاء

معلومٌ أنَّ أَلَم الخَوْفِ أشَدُّ مِن أَلَم الجوعِ والعَطَشِ وأفظعُ؛ بدليل أنَّ الخَوْفَ أَلَمُ النَّفْس أو الرّوح، والجوعَ أَلَمُ البَدَنِ، وأَلَمُ الرّوحِ أقْسى مِن أَلَمِ البَدَنِ، وعليه يتبادر سؤالٌ: لمَ قَدَّم اللّهُ تعالى في الحكاية دَفْعَ ضَرَرِ الجوعِ والعَطَشِ على دَفْعِ ضَرر الخوف؟!

وقد أجاب الفخر الرّازيّ عن هذا بقوله: "إنَّ هَذا الخَوْفَ كانَ قَليلًا؛ لأنَّ بشارَةَ جِبْريلَ ﷺ كانَتْ قَدْ تَقَدَّمَتْ؛ فما كانَتْ تَحْتاجُ إلى التَّذْكيرِ مَرَّةً أُخْرى"[2].

وقد يفيد هذا التَّرتيب تَرقّيًا مِنَ الأدنى إلى الأعلى؛ ومِنَ المُهمّ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 13، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 253.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 21/ 510.

إلى الأَهمّ؛ فإنَّها طُمئِنت مِن جهة المأكل والمشرب، ثُمَّ السَّلامةِ مِن ألم الولادة، ثُمَّ البشارة بقُرَّة عينِها، وراحةِ بالها، ثُمَّ ارتقت تلك البشاراتُ، ووصلت تسليتُها إلى قِمَّتِها، وبلغ تثبيتها إلى غايته، بإرشاد الله تعالى لها بما تفعله عند مواجهة قومِها، وهي تحمل رضيعَها، ولا يُخالِف أَحَدٌ في أنَّ أَشَدَّ ما كان يُؤَرِّق مريمَ، ويَقِضّ مضجِعَها حتّى تمنَّت الموتَ، هو مواجهتُها قومَها؛ لئَلّا تُرْمَى بما هي بريئة منه، وإنّما كان رفعُ ألمِ الجوعِ والعطش تمهيدًا لرفعِ ألمِ الرّوح والنّفْس والفؤاد، وتمكينًا له؛ لأنّ النّفْسَ تهدأُ وتستقرُّ شيئًا ما؛ إذا ما مارَسَتْ شيئًا تألَفُه؛ كالطّعامِ والشّرابِ؛ ولهذا قَرَنَ التّنزيلُ الحكيمُ في آية مستقلة بينَ الأوامرِ الثّلاثة: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، وبينَ قوله: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾.

الخبيرُ بالنّفس هو مرشدُها إلى ما يُصلحها

الغرض مِن أسلوب الكناية:

قوله: ﴿وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ كنايةٌ عنِ السُّرورِ، وهي كنايةٌ ناشئةٌ عن ضِدِّها، وهو سُخْنةُ العينِ الَّتي هي أَثَرُ البُكاءِ اللّازمِ للأسفِ والحُزنِ، فلمّا كُنّي عنِ الحُزنِ بسُخْنةِ العين[1].

و﴿عَيۡنٗاۖ﴾ تمييز منصوب مُحَوَّل عن فاعل، والأَصْل: لتَقَرَّ عينُكِ، وقرار العين يعني: سكونها، فالإنسان القَلِقُ الخائف المُضَّطرب لا تكاد تستقرُّ عَيْنُه، أو تتوقَّفُ عنِ الدَّوران، فكُنّي هنا بقرار العين عن هُدوء النَّفْس واستقرارِها، وأمنِها وهدوئِها، فقرارُ العين أمارةٌ على قرار النَّفْس.

وفي وصْفِ العين بذلك تأويلان: **أحدُهما**: أنَّه مأخوذٌ مِنَ القُرِّ، وهو البَرْدُ، وذلك أنَّ العينَ إذا فرِح صاحبُها كان دَمعُها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 89.

قارًّا، أي: باردًا، وإذا حَزِن كان حارًّا؛ ولذلك قالوا في الدّعاء عليه: أَسْخَنَ اللّهُ عينَه، وفي الدّعاء له: أقرَّ اللّهُ عينَه[1]، ومِن شواهده قولُ أبي تمّام[2]:

فأمّا عيونُ العاشقينَ فأُسْخِنَتْ***وأمّا عيونُ الشامتينَ فقَرَّتِ

والثّاني: أنّه مأخوذٌ مِنَ الاستقرار، والمعنى: أعطاه اللّهُ ما يُسَكِّنُ عينَه، فلا تطمحُ إلى غيره، والقيمة البلاغيّة للكناية: أنَّها تأتي بالمعنى مصحوبًا بالدَّليل المحسوس، فهنا أَمرٌ لَها براحة القلب والبال.

الغرض من التَّعبير بأسلوب الشَّرط:

عندَ المصائب يكونُ الحسم والفصل

أمّا الغرض مِنَ التَّعبير بأسلوب الشَّرط: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ﴾ فهو إرشاد السَّيدة مريمَ بسرعة تنفيذ قَوْل ما أُمِرت به: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، بمجرَّد رؤية أَحَدٍ مِنَ البَشر؛ لئَلّا تترك وقتًا لأحد لمجادلتها، وهذا ما أكَّدته الفاءُ العاطفة في جملة الشَّرط: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ بدلالتها على التَّعقيب.

معنى (ما) ودلالتُها في ﴿فَإِمَّا﴾:

إنّما يُمَكَّنُ المعنى بقَدْر احتياج النّفس له

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ الأصل: (إنْ ما)، دخلت (إنْ) الشَّرطيَّةُ على (ما) التي وقعت صِلَة لتَوكيد فعل الشَّرْط، بدليل التَّوكيد بالنّون الثّقيلة كتوكيد القَسَم، وأُدغِمَتْ فيها، وكُتِبَتْ مُتَّصِلة[3]، وزيدت (ما) بين (إن) وفعلِ الشّرطِ؛ لإشعارِها بضرورة مجانبة أحدٍ مِنَ البشر، عن طريق عدم الخوض في شأنها وشأنِ ولدِها معَه؛ فلا يكون بينَهما نوعُ اتّصالٍ، فزيادتُها تمهيدٌ لمجموعِ الشّرطِ وجوابِه، وتمكينٌ لمجموع معناهما.

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 7/ 590، وابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 13/ 49.
(2) ديوان أبي تمّام، ص: 159.
(3) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 13/ 50.

دلالةُ التّعبير بفعل الشّرط مضارعًا مؤكّدًا بالنّون:

غيرُ المألوف يُثير ويُلفِت

عُبِّر بفعل الشَّرْط مضارعًا ﴿تَرَيِنَّ﴾؛ للإشارة إلى استمرار تردّد البَشَر عليها لرؤيتها بعد مجيئها بولد مِن غير أب؛ وقد تأسَّسَ على هذا تمكينُ معنى مجانبة أحدٍ مِنَ البَشر.

واستدعى المقامُ توكيدَ الفعلِ بالنّون في ﴿تَرَيِنَّ﴾؛ لأنَّ السَّيِّدة مريم سترى مِنَ البَشَر الكثير، ولا تَرى مِن فضولهم ما يَسُرُّها[1].

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها في ﴿مِنَ ٱلْبَشَرِ﴾:

(مِـــن) بـيـنَ الـتَّـبـعـيـض والبيان

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْبَشَرِ﴾ تبعيضيّةٌ، والمعنى: إذا رأيتِ آدميًّا، ويَحْتَمِل أن تكون بيانيّةً، والمعنى: إذا رأيتِ أحدًا مِن جِنس البَشَر فقولي: كيتَ وكيتَ، والأعلى هو الثّاني؛ إبلاغًا في بيان كثرةِ مَن سيتعرَّضُ لها؛ بإشعار ﴿مِنَ﴾ البيانيّة بذلك؛ لغرابة شأنها وعَجَبِه.

الغرض مِنَ التَّعبير بالمَجرور معرفا باللَّام:

تـوجـيـهُ مـريـمَ بالامتناع المُطْلَق عـنِ الـكـلام مع بَشَر

الغرض مِنَ التَّعبير بالمَجرور مُعَرَّفًا باللَّام: ﴿ٱلْبَشَرِ﴾؛ هو الإشارة إلى امتناعها عنِ الكلام عند رؤية جِنس البَشَر، أي: اجتناب التَّحدّث مع أيّ إنسان، مهما كانت درجته في القُرْب منها أو البُعْد، أو حالُه في الصَّلاح أو الفُجور.

دلالة تنكير ﴿أَحَدًا﴾:

دلَّ التّنكير في: ﴿أَحَدًا﴾ على العموم، أي: إذا رأيتِ آدميًّا وسألكِ، فقولي: كيت وكيت.

الغرضُ مِنَ التَّعبير بجواب الشَّرْط فِعلَ أمر:

وجـوبُ توصيلِ الرِّسالة بنَصِّها

الغرض مِنَ التَّعبير بجواب الشَّرْط فعلَ أمر: ﴿فَقُولِىٓ﴾؛ هو الدّلالة على توجيه مريمَ لتوصيل رسالةِ رَبِّها، بتلقينها حُجَّتها - كما بلَّغها بها جبريلُ عليه السلام - بنَصِّها دون زيادة ولا نقصان، وقوله:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 4630.

﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ قيل: إنَّه مُرتَّبٌ على شَرْط مُقدَّرٍ بينَه وبينَ الشَّرطِ، تقديرُه: فإمّا ترينَّ مِنَ البشرِ أحدًا، فيسألُكِ الكلامَ، فقولي: إنّي نذرْتُ، إلخ، وبهذا سقَطَ ما قيلَ مِن أنَّ قولَها: ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ كلامٌ بعدَ النَّذرِ؛ إذ هو بهذا التَّقديرِ مِن تَمامِ النَّذرِ لا بَعْدَه[1].

وفي حذف هذا الشرط مسارعةٌ إلى تلقينها حُجَّتَها؛ لتَثبت ولِتَطمئنّ، وكأنَّ في إثبات هذا المحذوف إطالةً للكلام، يتأخَّرُ به الإرشادُ إلى الحُجَّة، وهذا يَشُقُّ على مريمَ، فكان في الحذف مسارعةٌ إلى إرشادها وتلقينها، حيثُ كانت نفسُها تتلهَّف لسماع ما يُثَبِّتها عند مواجهة النّاس، ولعلَّ هذا مِن رحمة الله بها، وقد يكون هذا مُسوِّغًا للتَّعبير بوصف: (الرحمن).

وقيل: المعنى: فإمّا ترينّ مِنَ البشر أحدًا فانْذِري صومًا، وإنْ لقيتِ مِنَ البَشَرِ أحدًا، فقولي: إنّي نذرْتُ صومًا، فحُذِفَتِ الجُملةُ للقرينة[2].

الغرضُ مِنَ التَّعبير بمَقول القولِ جملةً اسميّةً مؤكَّدةً:

تأكيدٌ للمُنكرين، وتنبيهٌ على البراءة

وعُبِّر بمَقول القولِ جملةً اسميّةً مُؤَكَّدَة: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا﴾؛ لأنَّ مريم ستواجه بَشَرًا يُنكرون عليها ما تحمله مِن غلام وُلِد من غير والد؛ لذا كان التَّوكيد بـ (إنَّ) والجملة الاسميّة تأكيدًا لهؤلاء المُنكِرين، وتنبيهًا على براءتها، وتمكينًا لمعنى الكلام في نفسها؛ حتّى تكون قادرةً على المواجهة به.

دلالة التَّعبير بالماضي:

ودلَّ التَّعبير بالماضي: ﴿نَذَرۡتُ﴾ على تأكيد صومها عن الكلام وتحقّقه.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 256، والأنصاري، فَتْح الرَّحمن، ص: 354.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 16/ 93.

الغرض مِن تقديم ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعول به:

تقديم سبَبِ النَّذْر على النَّذْر

وقُدِّم ﴿لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ على المفعول به؛ لأنَّه الأهمُّ في سياقه، حيثُ بادرتِ السَّيدةُ مريمُ ببيان المَنْذور له الصّوم، أي: الانقطاع عنِ الكلام، وقَدَّمته على بيان النَّذْر، وكأنَّها قدَّمت سَببَ نَذْرها، والمعنى: إنّي نذرتُ للرَّحمن الَّذي أدخلني في رَحْمَته على ضَعْفي، وخَصَّني بما رَأيْتُ مِنَ الكرامات والخَوارِقِ؛ فهي مُقْبِلةٌ بكليَّتِها عليه، إثرَ إقبالِه تعالى عليها برحمته وإحسانِه؛ ففي التقديم عظيمُ إحساسٍ بالقُربِ والإقبال.

الغرض مِن تنكير المفعول به ﴿صَوۡمٗا﴾:

تفخيم الصَّوْم

الغرض مِن تنكير المفعول به ﴿صَوۡمٗا﴾ تفخيمُ هذا الصَّوْم؛ لأنَّه للرّحمن ربِّها، المُتفضّلِ عليها بنِعمِه وإحسانِه وكراماتِه، وتأييدِه لها.

معنى الفاء ودلالتُها في ﴿فَلَنۡ﴾:

عــدمُ كـلامِـهـا مُسَبَّب عنِ النَّذْر

والفاء في ﴿فَلَنۡ﴾ للسّببيَّة، أي: فتَسَبَّبَ عَنِ النَّذْرِ أنّي لَنْ ﴿أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾، فإنَّ كَلامي يَقْبَلُ الرَّدَّ والمُجادَلَةَ، ولَكِنْ يَتَكَلَّمُ عَنّي المَوْلودُ الَّذي كَلامُهُ لا يَقْبَلُ الدَّفْعَ[1].

دلالةُ التَّعبير بأداة النّفي والمضارعِ:

التَّأكيد على نَفْي الكلام طيلةَ مُدَّةِ النَّذْر

وفي التَّعبير بأداة النفي (لن) في ﴿فَلَنۡ أُكَلِّمَ﴾ تأكيدٌ مِن مريمَ لنفي كلامها حالًا ومآلًا طيلةَ مُدَّة صومِها وفاءً بنَذْرها، فقد أُمِرت بالحَسْم والفصل في هذا الأمر، وقد دَلَّ التَّعبيرُ بالمضارع في ﴿أُكَلِّمَ﴾ على استمرار امتناعها عنِ الكلام، حتّى تنقضيَ أيّامُ نَذْرِها.

سِرُّ التَّقييد بالزَّمن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، وتقديمِه على المفعول به:

أمّا سِرُّ التَّقييد بالزَّمن: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، وتقديمه على المفعول به ﴿إِنسِيّٗا﴾؛ لأنَّه هو الأهمّ؛ حيثُ إنّه بدايةُ المواجهةِ مع قومها.

(1) البِقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 12/ 191.

الغرض مِن اصطفاء المفعول به ﴿إِنسِيًّا﴾ وتنكيره:

إفادة النَّكرة العمومَ لوقوعها في سياق النَّفْي

الإنسيُّ: الإنسان، والياء فيه للنَّسَب إلى الإنس، وهو اسم جَمع إنسان[1]، ولكمال إحساسِ مريمَ بغُربتها النّفسية وبانكسارِها، وهي في عالَم الإنْسِ، وبينَ قومِها أقربِ النّاسِ إليها، وأشدِّهم ألفةً لها، لطَفَ بها خالقُها العليمُ بحالها؛ فأمرها بأن تقولَ: ﴿إِنسِيًّا﴾؛ فكلُّ ما تتوهَّمُ فيه مريمُ صفةَ الإنس، وكلُّ ما يُنْسَب إلى الإنس بجهة: لن تكلمَه مريمُ.

ومجيءُ: ﴿إِنسِيًّا﴾ في الآية نكرةً أفاد العمومَ؛ لوقوعه في سياق النَّفْي، والمعنى: فلن أُكَلِّم أحدًا، والتَّقدير: (فلن أُكَلِّم إنسانًا قَطُّ مهما كان حالُه مِنَ الصَّلاح أو الفجور).

سِرُّ العدولِ عن (أحَدًا) إلى ﴿إِنسِيًّا﴾:

العدول للاحتراز والاحتراس

كان الظّاهرُ أن يقال: (فلن أكلِّم اليوم أَحَدًا)، لكن عُدِل إلى ﴿إِنسِيًّا﴾؛ للاحتراز عن الملائكة؛ إذ لم تُنْهَ عن ذلك، وتقدير الكلام: (وإنَّما أُكَلِّمُ المَلَكَ وأُناجي رَبّي)[2]، وذلك إذا كان ظاهرًا لها أنّه مَلَكٌ.

النهي عن الكلام بقول تقوله مريم عليها السلام:

قد يكون الصّمتُ عنِ الإفادة أزيدَ للإفادة

ظاهِرُ الآيَةِ أَنَّ السَّيّدة مريمَ أُبيحَ لَها أَنْ تَقول هَذِه الأَلْفاظَ الَّتي في الآيَة: ﴿فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾، وهذا قَوْل الجُمهور[3]، ولم يأتِ في الآيات أنّها نطقت بشيء من هذا في حوارها مع قومها، وقيل: أنّ هذا الخطاب إنّما هو منعٌ لها من القول مطلقًا، حتى بهذه الكلمات، والاكتفاء بطريق الإشارة إليهم والرمز لهم؛ لأنَّها كانت مأمورةً بهذا النَّذْر عند رؤيتهم، فلو تكلَّمت

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 16/ 94.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 8/ 87.
(3) القُرْطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 439.

معهم لأخلفت نذرَها؛ لذا أمسكت عنِ الكلام، وأومأت برأسها، أو أشارت بيدها، وقيل: إنَّها ما نذرتِ الصّوم عنِ الكلام في الحال، بل صبرت حتَّى أتت قومَها، فذكرت لهم نذرَها[1].

فائدة امتناع مريم عن الكلام:

مِنْ أَذَلِّ النّاسِ سفيهٌ لم يجد مُسافِهًا

في الامتناع عن الكلام بأمر اللّه تعالى سدٌّ للحوار والمجادلة معَ السّفهاء الذين اتَّهموها بارتكاب الفاحشة - حاشاها - ، وفي هذا دليلٌ على نَدْب السُّكوت عنِ السَّفيه والإعراض عنه.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّاس والبَشَر:

النّاسُ اسمٌ عامٌّ لبني آدم، وهم متساوون في البشريّة، مختلفون في الإنسانيّة

النّاس كلمة مشتقّةٌ مِنَ الأُنْس، وهو الاستئناس، أي: يأنَسُ الإنسانُ بوجود غيرِه معه، وأصله: أُناس[2]، والنّاسُ جَمعٌ لا مفردَ له مِن لفظه، "والنّاسُ قد يُذْكَر ويُراد به الفضلاءُ دونَ مَن يتناوله اسمُ النّاسِ تجوّزًا، وذلك إذا اعتُبِر معنى الإنسانيّة، وهو وجودُ العقل، والذّكرِ، وسائرِ الأخلاق الحميدة، والمعاني المختصّة به، فإنّ كلّ شيء عدمُ فعلِه المُختصّ به لا يكاد يَستحقّ اسمَه"[3]، والنّاسُ: اسمٌ عامٌّ لبني آدم.

والبَشَرُ: كلمة مشتقّة مِنَ البِشارة، وهذا يقتضي حُسْنَ الهَيئة؛ حيثُ خلق اللّهُ الإنسان في أحسن تقويم، يقال: رجلٌ بشير وامرأة بشيرة، إذا كان حسن الهيئة؛ وسُمّي النّاسُ بشرًا لأنّهم أحسنُ الحيوان هيئة، ويدلُّ أصل الكلمة أيضًا على الظُّهور، وسُمّوا بَشَرًا لظهور شأنهم؛ ومنه قيل لظاهر الجِلْد بَشَرة[4]، والبَشَر: الخَلْقُ، سُمّوا بَشَرًا اعتبارًا بظهور جِلْدهم مِنَ الشَّعْر والصّوف والوَبَر،

(1) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 5/ 543.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوس).
(3) الرّاغب، المفردات: (نوس).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 28، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بشر).

بخلاف الحيوانات فإنّها مُستَترةٌ بما ذُكر، وذلك أنّ البَشَرَة ظاهرُ الجِلْد[1]، والبَشَر: مفردٌ لَفظًا، جَمعٌ معنًى، ولم يُجمَع على لفظه، لكنَّه يُثَنَّى، كما في قوله تعالى: ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، وتَرِد كلمةُ (البَشَر) في الاستعمال القرآني عندما تُراد المُساواةُ، فالنّاس مِنَ حيثُ البشريَّةُ متساوون كلّهم، سواء من هذه النّاحية؛ أو مِن حيثُ ظهورُ البشرةِ فكلّهم متساوون؛ ولذلك يأتي قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: 110]، وقولُه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: 24]؛ لأنّهم متساوون في البشريّة، لكن مختلفون في الإنسانيّة، مِن حيثُ يَأنَسُ بعضُهم إلى بعض، ويعين بعضُهم بعضًا، فهُم في هذا متفاوتون ومختلفون في درجات الإنسانيَّة[2].

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين الحلبيّ، عُمْدة الحُفّاظ: (بشر).
(2) فاضل السّامرائيّ، لمسات بيانية، ص: 286.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والثلاثون،
سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 31 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-73-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 31 : المجلد الحادي والثلاثون، سورة مريمَ من الآية 13 إلى سورة طه الآية 35.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-73-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9736546 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»